أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائريـــة[1]

الدكتور/عميراوي أحميدة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

كل مذهب من المذاهب الشرعية الأربع نجده ترك أثرا عقائديا وثقافيا في المجتمعات التي يسودها ، ولا يختلف في ذلك المذهب المالكي وتبيان آثار المذهب المالكي في الثقافة الجزائرية.اعتمدنا العناصر التالية :

1* **موجز تاريخي** :من المعروف أن الجزائر تعد من أشهر البلدان التي استوطنتها أجناس مختلفة. وعاشت وتعايشت فيها ثقافات متعددة، كالثقافة الإغريقية ذات البعد الفكري الفلسفي. والفنيقية ذات النشاط التجاري والعمراني. والرومانية ذات المنشآت العمرانية الفلاحية والحربية.والعربية- الإسلامية ذات الإسهام الديني الروحي والعلمي، والتركية العثمانية ذات الإنجازات السياسية- العسكرية البحرية. والأوروبية ذات البناءات المدنية والعلمية والعلمانية. كل هذا ولد في الجزائر مخزونا ثقافيا متميزا، كانت جوانب منه متكاملة وجوانب أخرى متقاطعة، وأخرى متنافرة. ومن ثم تحكمت في هذا المخزون الثقافي عدة فواعل، تمثلت في أكثر من خطاب عرفته الجزائر، ويمكن ذكر ما تمثل في خطاب سياسي جامع بين العرف والدين (عرف، دين مسيحي،دوناتية...). وفي خطاب ديني مذهبي فقهي سواء أكان سنيا أم شيعيا

أم خارجيا، وفي خطاب روحي صوفي، والسؤال الذي يمكن طرحه هو : ما هو موقع وأثر المذهب المالكي في هذا المخزون الثقافي الجزائري ؟

إن محاولة الإجابة على هذا السؤال يفرض علينا معرفة وحصر مصادر الثقافة الجزائرية.

2* من مصادر الثقافـــة الجزائريـــة :

ونراها تنحصر في أمرين، الأول تاريخي، والثاني مرجعي تأليفي، فالتاريخي يعرف من خلال الموجات الثقافية التي تعاقبت على الجزائر، والتي على أساسها يمكن القول أن المجتمع الجزائري مشدود من الناحية الفكرية والاجتماعية إلى اعتبارات ستة هي :

1- **العرقيـــة** التي كانت من القبائل والأعراش والأسر الجزائرية العريقة، ومن الجاليات الأجنبية كاليهود والمسيحية والزنجية الإفريقية التي وجدت الخصب والمقام الطيب في الجزائر نتيجة لما كان عليه الجزائريون من تسامح وتقبل للآخر بالحوار الهادئ، والعطاء.

2- **المذهبيـــة** الفقهية خاصة السنية (مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه نموذجا) والإباضية .

3- **الروحيـــة** الصوفية التي قام بها شيوخ طرق هم من الصالحين.

4- **الفلسفيـــة** التي عرفتها الجزائر منذ عهد سانت أوغستين الذي أسهم بفكر فلسفي ديني، وعهد ابن رشد في عصر دولة الموحدين، وكذلك القاضي أبي بكر بن العربي ومحي الدين بن عربي ومنهم إلى مالك بن نبي في عصرنا الحالي .

5- الأسطـــورة أي ماتعلق بالثقافة الجزائرية من معتقدات ممزوجة بما هو ديني وبما هو غير ذلك .

وأخيرا الأفكار الحديثة المتاثرة بالعلوم الوضعية .

والأمر الثاني لمصدر الثقافة الجزائرية يتمثل في المساجد والمدارس والزوايا المنتشرة في الجزائر. وكذلك في وفود العلماء الذين زاروا الجزائر، وفي أبناء الجزائر طلاب العلم الذين كانوا يقومون برحلات إلى البلاد الإسلامية ويعودون إليها بكنوز معرفية معنوية ومادية .

فصارت هذه الكنوز – خاصة من كتب- مرجع كل جزائري .إذ أن من أهم الكتب التي كانت مرجع الثقافة الجزائرية التي حظيت بإقبال الجزائريين على اقتنائها هي :

* في علوم القرآن الكريم مثل الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعالبي، وكتاب أحكام القرآن لأبي الحسن علي بن محمد الطبري، وكتاب الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لأبي محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي .

* في الحديث الشريف مثل كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس و كتاب الجامع الصحيح للبخاري ،و كتاب سنن أبي داوود ،و كتاب جامع الترمذي.

* في الفقه مثل كتاب المدونة والمختلطة لعبد السلام بن سعيد سحنون، وكتب أخرى للقاضي عياض بن موسى وللطرطوشي.

* في اللغة مثل كتاب سيبويه والعقد الفريد.

* في التصوف مثل رسالة فضل مكة لأبي الحسن البصري، وقوت القلوب

ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب لأبي طالب محمد بن علي المكي، ورسالة القشيري، وغيرها من أمهات الكتب [2] .

3* أثر المذهبية الدينية في الثقافة الإسلاميـــة:

ونقصد بالمذهبية الدينية ما ساد في الجزائر من اعتقادات سماوية يهودية ومسيحية وإسلام. وسنركز على المذهبية الفقهية الإسلامية. هذه الأخيرة كان لها أثر فاعل ومستمر في تشكيل الثقافة الجزائرية، على جانب الصراع من هذه المذهبية الذي استمر بين كل من السنيين والشيعيين والخوارج. ولسنا بحاجة إلى الحديث مطولا عن المذهبية في الجزائر بقدر ما نحن بحاجة إلى الحديث عن أثرها في تشكيل الثقافة الجزائرية .

يجوز لنا من الناحية التاريخية القول: أن المدرسة السنية في شمال إفريقيا مرت بمرحلتين، الأولى تمثلت في التشبث بمنهج السلف والدعوة للإسلام وكان ذلك على يد الفاتحين والفقهاء الوافدين من المشرق [3]. وعلى يد طلاب العلم المغاربة الرحالة إلى المشرق والعائدين إليها. والمرحلة الثانية تميزت بظهور المتكلمين المغاربة. وخلال المرحلتين كان الحوار والتسامح كبيرين بين الفاتحين والداعين والفقهاء المتكلمين كطرف وبينهم وبين المجتمع المغاربي كطرف ثان. وكانت نقطة اللقاء والالتقاء المسجد خاصة، الذي به انتشرت العروبة لغة وثقافة مثلما انتشر الإسلام دينا وثقافة أيضا. فاصطبغت الثقافة المحلية بالعروبة والإسلام معا بشكل متواز ومطابق، على خلاف ما حدث في المشرق من نفور بعض السكان العرب وغير العرب المسلمين. وهذا ما يفسر في رأينا غياب بعض الاتجاهات الفكرية والأيديولوجية في بلاد المغرب بينما ظهرت في المشرق مثل نزعة العروبة

التي اعتمدت الجنس واللغة كأساس، والنزعة القومية الدينية التي اعتمدت الدين الإسلامي، وهو ما يفسر برأينا أيضا عدم الظهور المبكر والموازي لبعض المفاهيم كالحداثة والمعاصرة وغيرها في الثقافة الجزائرية، ويفسر كذلك عدم ظهور الطائفية الدينية والعرقية.

ومن ثم تجنب المجتمع الجزائري نفس الصراعات الدموية التي عاشتها أطراف في المشرق، وكان الأقوى في بلاد المغرب من المذاهب السني الأشعري (أبو الحسن الأشعري ت 330هـ / 945 م) وهو مذهب وسطي بين غلو المعتزلة في اعتماد العقل وبين المكتفين -بالنص من علماء أصول الدين وعلم التوحيد أو الفقه الأكبر في الالتزام بالنقل[4]. اذ انتشر المذهب الأشعري في البلاد الإسلامية مغربا ومشرقا. وبه صارت الثقافة الجزائرية في جانبها الغالب ثقافة فقهية سنية.

واهتم علماء الفكر السني برواية الحديث والتدوين واستنباط الأحكام لهذا يمكن اعتبارهم الأقرب إلى الحوار وإلى التسامح خلاف فرق أخرى في بعض بلدان الشرق والمشرق.

وتضاعف التسامح أكثر في بلاد الجزائر نتيجة لموقف الزوايا التي كان أغلبها بيد الطرقيين، إذ أن مثل هذه الزوايا لم يتخرج منها عبر مراحل نشاطها سوى أئمة وعلماء.

4- **مكانة الحياة الروحية الصوفية في الثقافة الجزائرية** : يعد الفكر الجزائري في بعده الروحي – الصوفي أحد مضامين الثقافة الجزائرية، ومن ثم

أحد مشكلات الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الإنسانية معا، وهذا بفعل مساهمات شخصيات كثيرة مثل أبي مدين شعيب ومن شيوخ الطرق الصوفية السنية أمثال العلامة سيدي محمد بن الكبير .

فلهؤلاء الشيوخ العلماء فضل كبير في تنقية وصفاء النفوس، وتقوية الإدراك، إذ أنه وفقا لقواعد النفس والروح والعقل فإن الإدراك للأمور كان يتفاوت من شخص إلى آخر ومن قاعدة العقل إلى قاعدة الروح وعند العجز العقلي في معرفة الحقيقة الإلهية تكون النفس والروح الأقرب إلى إدراك هذه الحقيقة عن الطريق المجاهدة والكشف والتجلى.

ومن باب التقويم يمكن القول إن هذا اللون من الفكر الروحي الصوفي انطلق في بداية عهده إلى المناجاة للوقاية من عذاب الدنيا والآخرة. لكنه بداية من القرن الثالث الهجري تطور إلى المناجاة وطلب المعرفة خاصة على يد ذي النون المصري المتوفى عام 245 هـ وتطور من جانب آخر إلى المنجاة والحلول والفناء أي حلول الله في مخلوقاته. فتكون هذه المناحي الروحية قد خالفت المناحي الفلسفية التي تسلك طريق التأمل العقلي لبناء قواعد فكرية يطبقها المتأمل عمليا. في حين أن المنحى الروحي الصوفي ينطلق من العمل التعبدي القائم على الذكر والزهد والمجاهدة إلى التأمل الباطني. بينما الفكر الروحي الفقهي ينطلق من نص جاهز قائم على التوحيد أي على لا إله إلا الله.وقد انتشر هذا اللون من الفكر الروحي الصوفي في الجزائر سواء في الريف أو المدينة. إذ كانت معظم المدن والأرياف الجزائرية موئل كثير من الشيوخ وهو ما يفسر كثرة المؤسسات الثقافية كالزوايا. فمدينة قسنطينة مثلا وجدت بها ما يقارب

100 زاوية قبيل الاحتلال الفرنسي لها [5]، وسواء في المدينة أم في الريف فإن الطرقية [6] التي عددها بعض الدارسين بست عشرة طريقة. وأن ثلاث عشرة طريقة [7] كانت تحتل في المجتمع الجزائري مكانة هامة، إذ أن لشيخ الطريقة نفوذا واسع من نفوذ شيخ القبيلة. وحتى من نفوذ الداي أو الباي .

وكان المرابطون الطرقيون نعمة على المجتمع بإشرافهم على المؤسسات الثقافية التعليمية وفض النزاعات، وفرض التسامح بين أفراد القبائل. وكانوا أيضا نقمة على المجتمع بما أحدثوه من صراعات محلية فيما بينهم ونشرهم للخرافة والشعوذة. حيث اتخذوا من الزاوية العاصمة الثقافية والسياسية والإدارية لنظام حياتهم الروحية.

وكانت القبائل تتسابق إلى أن يكون لها مرابط لتدعم شوكتها، وكان المرابط يقيم في الريف يحتمي بالقبيلة وتحتمي به. "وقد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في بداية القرن 16، ثم أخذت تنمو في هذا القرن وتنتشر على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن 18 والربع الأول من القرن 19 "[8]. وقبل هذا التاريخ كان " التصوف" فرديا. وبانتشار الطرق ضعف نشاط المرابطين بل تم دمجهم في الطريقة نتيجة اهتمام القبائل بالطرقيين بدل اهتمامهم بالمرابطين الذين كان أغلبهم في خدمة النظام. وهذا ما يفسرموقف العلماء الدينيين الذين ناصبوا الطريقة والطرقية العداء، وفشلوا في فرض أنفسهم على الطرقيين خاصة أثناء الحكم العثماني، ومن ثم لم ينجح العثمانيون ولا العلماء في الصمود أمام الطريقين، فالطرقية وحدت أكثرية المجتمع الجزائري روحيا وهو ما عجزت عنه السلطة العثمانية، لأن "الطرق الصوفية لها نظام إداري، يشبه النظم الإدارية

للحكومات لذلك العهد، ولا سيما فيما يتصل بالمناصب وجباية المال. وتسخير الأتباع في استثمار الأراضي والعقارات المحبوسة على زوايا الطريقة، وكذا فيما يتصل برعاية الأتباع وتسييرهم أو حكمهم، كما أن للطرق أسرارا كأسرار الدولة، لم يكن يطلع عليها سوى الذين يتولون شؤونها من رجال الطريقة "[9] .

و بهذا تشكل الطرقية محور الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر . و عن طريقها كان اهتمام الجزائريين بالمساجد و المدارس و الزوايا و الكتب و المكتبات و الوقف و الرحلات العلمية إلى خارج الجزائر. و كان لشيوخ الطرق من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء العالم لنضام الحكم القائم. و هم الذين كانوا الأكثر تسامحا من غيرهم .

وصفوة القول إن مخزونا فكريا يشكل الثقافة الجزائرية واصلها. وكان للمذهب المالكي تأصيل كبير فيها. وللحياة الروحية الصوفية السنية فاعل هام في بقائها واستمرارها.

الهوامش

1 ــ ورقة أعدت بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الخامس عشر لزاوية ذي النورين المباركة، يومي 30 سبتمبر ــ 1 أكتوبر 2004 بدائرة إينغر ولاية تمنراست، مع ملاحظة أن أغلب هذه المعلومات مأخوذة من كتابي : **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة 2001

2 – يراجع : أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية،ــ تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981، ص : 26 – 28

3 – أهم الفقهاء من المشرق الوفد المتكون : من 10 برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز حوالي سنة 100 هـــ / 788 م إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات يراجع : عبد المجيد بن حمدة، المدار الكلامية بإفرقية، مطبعة دار العرب، ط 1، تونس 1986، ص : 33 وما بعدها.

4 – وإن كان يشهد للحارث بن أسد المحاسبي المتوفي عام 243 هـــ/ 936م بأنه أول من أصل المذهب الكلامي المستند على القرآن الكريم والحديث الشريف.

5 – يراجع ما كتبناه بعنوان : "وثيقة نادرة عن المؤسسات القافية بمدينة قسنطينة" ، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 87 – 88، تونس 1997، ص ــ ص : 625 – 639.

6 ــ لمزيد من المعلومات، يراجع ما كتبناه بعنوان : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. مطبوعات جامعة منتوري ــ قسنطينة، جانفي 2000، ص — ص : 132 - 134.

7 — سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ، و،ن،ت، الجوائر 1985، ص : 466 يذهب أبو القاسم أيلة نابعة من ظروف سياسية أو دينية محلية. المرجع نفسه ، ص — ص : 532 - 533 ينظر كذلك :

Rinn (L), marabouts et khouans, jourdan, Alger, 1884.

8 — مسعود العيد، "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العماني" سيرتا ، العدد 10 ، مجلة يصدرها معهد العلو الاجتماعية، جامعة قسنطينة ، الجزائر 1988 ، ص : 10.

9 — مسعود العيد، المرجع نفسه، ص : 19